فسيفساء بيزنطية من مدينة توكرة الاثرية

أ. خالد محمد الهدار◆

تعد الارضيات الفسيفسائية البيزنطية اهم الزخارف التي كانت تزين بعض اجزاء الكنائس وبعض المباني الاخرى في اقليم المدن الخمس الليبية (كيرينايكي او قورينائية) ، وقد كشف عن مجموعة من الارضيات الفسيفسائية في بعض كنائس الاقليم التي تؤرخ ما بين القرنين الخامس و السادس لعل اهمها فسيفساء قصر ليبيا وفسيفساء كنائس رأس الهلال و سوسة و شحات وتوكرة وبانديس وغيرها ، واغلبها يرجع الى عصر الامبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) الذي شهد عصره تزيين مجموعة كبيرة من الكنائس وفقا للدراسة الى قامت بها روزنبام وورد بيركنز للفسيفساء البيزنطية في الاقليم والتي عزرت اخيرا بما اضافته جويس رينولدز لكتاب وورد بيركنز وجودتشايلد عن المعالم المسيحية في الاقليم الذي اضيفت فيه بعض الفسيفساء لم يشملها الكتاب الاول.

ولم يقتصر استعمال الفسيفساء كأرضيات على الكنائس بل ان هناك مباني اخرى استعملت فيها الفسيفساء ايضا ، من هذه المباني ، قاعة كشفت عنها الحفريات التدريبية لطلاب قسم الآثار بجامعة قاريونس ما بين ١٧-٢٩ من شهر ابريل عام ١٩٧٢ في مدينة توكرة الاثرية التي اشرف عليها المرحوم د. فوزي الفخراني[١] ، حيث كشف عن ارضيتين من الفسيفساء فوق بعضهما ستكون العلوية منهما مجال هذا البحث الذي يشمل دراسة وصفية تحليلية مقارنة لمشاهد هذه الفسيفساء للوصول الى تفسير لمشاهدها والتوصل الى ماهية المبنى الذي كانت تزينه ، اضافة الى تأريخها عن طريق مقارنتها مع غيرها من الارضيات الفسيفسائية.

وتجدر الاشارة الى ان هذه الارضية كانت تزين قاعة تنتهي بحنية توجد اقصى المبنى الذي يقع إلى الجنوب من الكنيسة الشرقية وتحديدا على مسافة حوالي ١٠٠ متر منه ، وعلى الرغم من ان هذا المبنى لم يكشف عنه بالكامل فقد يكون قصرا بيزنطيا او مبنى سكنيا و خدميا لشخصية مميزة ، وتعد هذه القاعة احدى حجراته المميزة ، وقد نقلت الارضية الفسيفسائية من مكانها عام ١٩٧٦ ووضعت في في قاعة ملاصقة

◆ قسم الآثار – جامعة قاريونس.

[١] – يراجع عن تلك الحفريات التقرير غير المنشور الذي اعده د.فوزي الفخراني ، الموسوم (تقرير عن الحفريات الأثرية الأولى للجامعة الليبية التي قام بها قسم الاثار بكلية الاداب في مدينة توكرة الأثرية ١٧-٢٩ ابريل ١٩٧٢) ص ص. ١-١٦.

لمتحف توكرة[٢] ، ولاتزال في ذلك المكان غير المناسب مما عرض اجزاء منها التدمير، اذ تأثرت بالرطوبة والاهمال مما جعلها تبدو الان في حالة سيئة من الحفظ وتحتاج اجزاء منها الى اعادة ترميم لاسيما الجزء الجنوبي الشرقي من الارضية. كما توجد اجزاء من الارضية مدمر قديما و من ثم فقد ضاعت اجزاء من مشاهدها. وهذا انعكس سلبا على تفسير مشاهد الارضية بالكامل ، وقد سبقت دراسة هذه الارضية دراسة جزئية مما دفع الى اعادة دراستها هنا[٣].

وصف المشاهد و تحليلها :

تمتد هذه الارضية الفسيفسائية بطول ١٠,٣٥مترا ، و عرض ما بين ٥,١٨ – ٥,٢٠ مترا ، وهي تظهر بمثابة سجادة مزخرفة بمشاهد مختلفة و مقسمة من الداخل إلى اشرطة مستطيلة تحوي مشاهد متنوعة ، ولتكن البداية بالاطار الزخرفي الخارجي الذي يحيط بالارضية من اربع جهات غير ان اجزاء كبيرة منه قد دمرت و افضل ما تبقى منه يوجد في الناحية الجنوبية الشرقية من الارضية تمثل في شريط بعرض ما بين ٦٦-٦٧ سم ، يحمل هذا الاطار زخارف هندسية تمثلت في دوائر صغيرة وانصاف دوائر محاطة باشكال تشبه المراوح ظهرت في شكل وحدات متكررة كل وحدة تمثلت في دائرة محاطة باربعة اذرع مروحية ذات اشكال بيضية بنهايات حادة ، وقد ظهرت الاشكال البيضية في لون ابيض مصفر و في لون ازرق قاتم او اسود ، وقد نفذت الاشكال على ارضية برتقالية محمرة . وهذا النوع من الزخرفة ظهر في الفسيفساء الرومانية في تونس وليبيا ، وعرفت امثلة في القسطنطينية وهادرينبوليس (تركيا) و انطاكية وفلسطين ، وفي ام الجمال بالاردن وشمال افريقيا و غيرها من المواقع الأخرى[٤] ، ويبدو ان فنان هذه الارضية كان مقلدا لذات الزخرفة التي وجدت في فسيفساء الساحة المقدسة بالكنيسة الشرقية في قصر ليبيا ، وهي مطابقة لفسيفساء

٢ – توفيق سليمان (و آخرون) ، أعمال التنقيب التدريبية عن الآثار لجامعة قاريونس –بنغازي في ليبيا١٩٧٤–١٩٨٣، توكرة ، ج ١ (دمشق:١٩٨٦) ج.١ ص. ٢٤٧ ، ج.٢ ص. ١٩ .

٣ – فوزي الفخراني ، تقرير عن الحفريات الأثرية الأولى للجامعة الليبية التي قام بها قسم الاثار بكلية الاداب في مدينة توكرة الأثرية ١٧-٢٩ ابريل ١٩٧٢) ص ص. ٩-١٢.

Stucchi, Architettura Cirenaica,pp.427-428;Rosenbaum &Ward-perkins, Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches,pp.34-35 , note 89;D. Michaelides ,Libyan Studies , 13 (1982)pp.116-117 ; M. Fakroun, in Academie des Inscriptions & Belles – Lettres , Comptes Rendus des seances de L'annee 2001, pp. 477-488.;Ward-Perkins,&G.Goodchild, (et al) Christian Monuments of Cyrenaica , J.Reynolds (ed) ,pp. 218-222.

4 - D.Michaelides , Excavations at Sidi Khrebish , Benghazi (Berenice) IV part I (Tripoli – London: 1998)pp151figs.53-54. ;،

الحجرة الجنوبية الشرقية بالكنيسة الشرقية في شحات[٥] ، وقد وجدت هذه الزخرفة على غالبية فسيفساء كنائس القرن السادس مثل توكرة وسوسة وشحات ورأس الهلال[٦].

يحصر الاطار الخارجي عدة اطارات اخرى نفذت داخلها مشاهد متنوعة يمكن دراستها على النحو الاتي:

أ- **مشهد مشخصات كتيسيس كوزميسيس انانيوسيس** : الذي يمتد داخل اطار بطول ٢,٣٩ و عرض ٧١ سم ، و يتكون المشهد من قوس ثلاثي الفتحات يرتكز على أربعة أعمدة حلزونية التخديد (ع.٦٠ سم) تقف على قواعد ايونية، وذات تيجان مشطوفة ،تعلوه بعض الطيور يمكن التعرف على طائر الحجل الذي يمكن مقارنته مع طائر ظهر على فسيفساء قصرليبيا[٧]. يوجد أسفل كل عقد من عقود القوس الثلاثي سيدة او فتاة واقفة في وضعة الثلاثة ارباع ، ترتدي السيدات الثلاث لباسا مشابها الى حد ما تمثل في ثوب (جلباب) مزخرف يصل الى القدمين تعلوه عباءة مفتوحة من الامام ، اضافة الى شال يعلو العباءة و يمتد بشكل افقي مغطيا الجزء العلوي من البدن ، لعل ابرز ما يميز تلك السيدات ان كل منها يتخلل منطقة الرأس كتابة اغريقية يسبقها صليب وهي مفصولة الى جزأين ، فالسيدة التي داخل العقد الايمن تحمل كلمة كتيسيس (Κτισις +) هذه الكلمة تعني التأسيس او الخلق ، وتظهر كلمة كوزميسيس (Κοσμεσις +) التي تعني الزخرفة داخل العقد الاوسط ، اما كلمة انانيوسيس ([Ανανεω[σις +) التي تعني التجديد او المجدد فقد ظهرت بجانب السيدة التي داخل العقد الايسر ، ويلاحظ انه تظهر شجرة خلف السيدات الثلاث ، وكل سيدة تحمل في يدها شيئ مختلف فمشخصة كتيسيس تحمل مبخرة اسطوانية تتدلى بسلسلة من يدها اليسرى او ربما تكون اداة من ادوات البناء ميزان على سبيل المثال ،**(لوحة ١)** وتحمل بيدها اليمنى اداة مسننة يبدو انها تمثل القدم الرومانية التي تستخدم في القياس قياسا على مشهد كتيسيس في متحف الميتروبوليتان و مشهد كتيسيس من قبرص التي تحمل فيه كتيسيس أداة مشابهة[٨] . اما مشخصة كوزميسيس فهي تحمل بيدها اليمنى عصا او صولجان و بيدها اليسرى حزمة من ازهاراللوتس ، وتتجه بهما ناحية اليسار كأنها تواجه كتيسيس . اما مشخصة انانيوسيس فهي تحمل بيدها اليمنى مبخرة اسطوانية مطابقة لتلك التي تحملها كتيسيس، ويبدو انها كانت تحمل بيدها

٥- يراجع للمقارنة : Rosenbaum & Ward-perkins, Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches , pls.44, 63.

6- Rosenbaum & Ward-perkins, Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches , pl. 33, nos.1-2pl.72 no.2.; R.M.Harrison, Paper British School at Rome 32(1964); A. M. Abusbee, A 6th century A.D. floor Mosaics of Cyrenaican Churches (Style and decoration).

7-Rosenbaum & Ward-perkins,Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches , pl.55.1.

٨- يراجع للمقارنة : www.cyprustourguide.com ; www.metmuseum.org

اليسرى منديل ابيض وهنا يوجد اهتراء في المشهد مما ادى إلى ضياع اليـدين ومـا تحمله اليد اليسرى و نهاية كلمة انانيوسيس المسبوقة بشكل صليب.
وقبل مواصلة وصف ما تحويه هذه الارضية الفسيفسائية من مشاهد مختلفة يستحـسن التعليق على المشاهد السالفة الذكر لاهميتها ، و في هذا الصدد ان السيدات (الفتيـات) الثلاث لا يقصد سيدات بعينهن او انها تجسيد لاشكال نسائية بل المقصود هنـا هـو تشخيص لمعاني ورموز تعنيها كلمات كتيسيس(التأسيس) و كوزميـسيس (الزخرفـة) وانانيوسيس (التجديد) ، وطريقة التشخيص تلك يمكن تتبعها في التراث الكلاسيكي مثل تشخيص المدن في اشكال نسائية و تشخيص شهور السنة او الفصول الاربعـة فـي اشكال بشرية مختلفة ، وتشخيص الافكار المجردة تطور بواسطة الفلاسفة الـرواقيين وطبقت عند الرومان ثم شاعت في العصر البيزنطي .
وتجدر الإشارة إلى ان امثلة مشابهة من المشخصات الثلاث قد ظهرت في فسيفساء صحن الكنيسة الشرقية بقصرليبيا ، ومشخصان في فسيفساء رأس الهلال[٩] لكنها نفذت بشكل مختلف حيث يلاحظ انها تقف حرة في قصر ليبيا وداخل كوة او محـراب فـي رأس الهلال، وتستوجب المقارنة الإشارة إلى الاختلاف بين النماذج الثلاثة من حيـث اللباس و الوضعية و الملامح ويمكن القول ان عنصر التشابه يكاد يكون معدوما فيمـا بينها باستثناء حمل المبخرة و الازهار ووقوفها بين الاشجار في نماذج قـصر ليبيـا وذات العناصر وجدت في توكرة ، ويمكن مقارنة بـين المشخـصات (كتيـسيس و انانيوسيس) التي تحمل مبخرة مع امثلة مشابهة تحمل مبخرة مثل كوزميسيس قـصر ليبيا ، وهناك مثال مشابه في فسيفساء كنيسة بجرش يظهر بها شخص بـنفس وقفـة كتيسيس يحمل مبخرة ، كما ظهر في فسيفساء بالقدس راهبان يحملان مبخرة[١٠] بنفس وقفة ووضعة انانيوسيس . كما انه يمكن مقارنة ما يحمله كتيسس توكرة في يده اليمنى (القدم الرومانية كاداة قياس) مع كتيسيس رأس الهلال و امثلة أخرى فـي قبـرص و متحف الميتروبوليتان[١١] .
و من الضروري التعريج عن معنى هذا التشخيص وما ترمز اليه هذه الاشكال ؟ وفي هذا الصدد عرفت طريقة التشخيص تلك في اماكن أخرى مثل قبرص[١٢] و انطاكيـة و لبنان[١٣] وفي متحف الميتروبوليتان في نيويورك[١٤] ، ولوحظ ان تـشخيص كتيـسيس اكثر تكرار مقارنة بانانيوسيس اما كوزميسيس فلم يجسد الا في ليبيا. و لبيان مـا

9- Rosenbaum & Ward-perkins, Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches pl.5, 1-3, pl.55.1-3; R.M.Harrison, Paper British School at Rome 32(1964)pp.1-20.

10 Rosenbaum & Ward-perkins, Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches pl.92,12.

11 – يراجع عنها : www.metmuseum.org ; www.cyprustourguide.com

12 – يراجع عن صورة كتيسيس قبرص : www.cyprustourguide.com

13 -www.kahlil.org/lebpics/lebpics132.html

١٤ -يراجع عنها : www.metmuseum.org

ترمز اليه هذه الاشكال يستلزم مناقشة معاني الكلمات السابقة بشيء من التفصيل ولاسيما كلمة كتيسيس(Κτισις +) والتي ان كانت تعني التأسيس فانها جاءت في الكتاب المقدس بمعنى الابداع و الخلق و التكوين ، الا ان ذكرها هنا لا يعني المعاني الدينية الاخيرة حيث تعني معاني أخرى ظهرت بها الكلمة في اللغة الأغريقية ترتبط بنواحٍ دنيوية عملية وليست دينية ، حيث يركز معناها حول التأسيس و أعمال الانشاء و البناء ، كما ان من معانيها مبنى[١٥] ، ويبدو ان ظهور كتيسيس على الارضيات الفسيفسائية كان يعني التأسيس و التشييد وهو يشير لواقعة البناء و ليس إلى من قام بأعمال البناء و الانفاق على المبنى[١٦] ، و في الامثلة السابقة التي ظهرت فيها كتيسيس وترجع الى النصف الأول من القرن السادس الميلادي ، فسرت الكلمة بمعنى تأسيس المبنى او المدينة ، وقد يعزز هذا التفسير ان بعض مشخصات كتيسيس غرار كتيسيس توكرة كانت تحمل بيدها اداة قياس (القدم الرومانية) ، ويبدو ان استعمال الكلمة كتيسيس و المشخص المرافق لها في فسيفساء ليبيا يدل على بناء و تدشين مبانٍ جديدة او إعادة بناء مدينة مثل كتيسيس قصر ليبيا حيث ظهرت بمعنى تأسيس المدينة الجديدة ثيودورياس او تأسيس كنيسة جديدة بتلك المستوطنة وقياسا على هذا ربما كتيسيس توكرة تعبر عن معنى مشابه أي تأسيس المبنى الذي وجد فيه تشخيص كتيسيس ، و من الضروري ان يربط هذا التفسير مع كوزميسيس و انانيوسيس ، فالاولى التي تعني الزخرفة ، و الثانية التي تعني التجديد ، مما يجعل المعنى الاجمالي لهذا الثلاثي من المشخصات تعبيرا على الاحتفال بتجديد هذه القاعة و زخرفتها بارضية فسيفسائية جديدة ، قياسا على مشخصات قصر ليبيا التي فسرت انها تعني تأسيس كنيسة جديدة و زخرفتها و بناء مستوطنة جديدة اي المدينة الجديدة ثيودورياس ، كما انه في حالة توكرة قد يعني مشخص انانيوسيس تجديد الامبراطور جستنيان لبعض مرافق المدينة لعل اهمها الاسوار وفقا لما يذكره بروكوبيوس ، كما ان غياب هذا المشخص في كنيسة رأس الهلال وظهور كتيسيس وكزميسيس اي التأسيس والزخرفة ، يعبرعن تأسيس كنيسة رأس الهلال وزخرفتها وتزينها بالارضية الفسيفسائية لانها بنيت هناك لاول مرة ، ومن ناحية اخرى انه عند النظر إلى موقع هذا المشهد من الارضية يلاحظ انه يقع قرب الحنية التي يجلس فيها صاحب القاعة (قد يكون الاسقف) ، وقبل الوصول إلى مجلسه تظهر هذه المشخصات الثلاثة

---

١٥ - يراجع عن معاني كتيسيس لاسيما من الناحية الدينية :

R. Deem , Does Romans 8:19-22 Refer to the Cursed Creation?
http://www.godanscinnce.org/youngearth/romans8.html

16 - Ruth Leader, Name Labels on Late Antique Mosaics.British Academy Review, Research Awards, pp.49-50.
www.britac.ac.uk/pubs/review/

بالكلمات التي تعلوها ومن هنا فان هذا قد يقرأ (يفسر) ان الاسقف او الجالس في الحنية هو المسؤول او من أمر بعملية التأسيس و الزخرفة و إعادة تشييد هذا المبنى الذي من المؤكد كان له طابعا دينيا او مرتبط بشخصية دينية الاسقف مثلا ، الذي حرص ان يسبق كل كلمة صليب هذا الذي لم يظهر لا في فسيفساء قصر ليبيا و لا في رأس الهلال.

ب- مشاهد مشخصات انهار الجنة الاربعة وما يرتبط بها :

يبدو ان هذه الارضية كان في الاصل يزينها مشهد لشخص يرمز لاحد الانهار في كل زاوية من زواياها الاربعة داخل الاطار الزخرفي الخارجي لم يبقَ منها الا مشهد فيسون و يوفراتيس المتقابلان بشكل قطري (شمال ــ جنوب) و قد ضاع المشخصان المتقابلان بشكل قطري (شرق ــ غرب) اي جيون و تجريس. حيث ان مشهد كتيسيس و كوزميسيس و انانيوسيس كان يحيط به مشهدان يرمزان لنهرين من انهار الجنة الاربعة ، لم يبقَ منهما الا مشهد فيسون الواقع إلى جانب انانيوسيس **(لوحة ١)**، وقد تمثل هنا في مشهد رجل ملتحٍ خلفه شجرة سرو مرتديا عباءة تغطي جزء من بدنه ، وهو جالسا على جرة مستديرة ينسكب منها الماء ، اضافة الى جرة اخرى يمسكها بيديه يسكب منها الماء ايضا ويعلوها طائر السمان ، كما يمسك سنابل قمح او شعير بيده اليمنى ، يمثل هذا الرجل مشخص النهر فيسون (Φισων +) الذي يظهر اسمه مسبوقا بصليب ، ووضعية فيسون هذه تشبه تصوير يوفراتيس وجيون في قصر ليبيا ، لكنها لاتشبه مشخص فيسون في الارضية نفسها[١٧].

اما مشهد النهر الذي كان موجودا لليسار من كتيسيس على الجانب الاخر من الارضية فقد ضاع و لم يبقَ منه أي اثر ، ربما كان مزخرف بمشهد يرمز لنهر جيون (Γιων) اي ان النهرين السابقين كانا عند الحنية بينما نهر تجريس (Τιγρις) اي دجلة الضائع من الارضية ايضا و نهر يوفراتيس (Ευφρατης) فكانا عند المدخل ، وهذا الترتيب اقتضاه الواقع الحالي للارضية ، اضافة الى ان الترتيب ذاته ظهر في فسيفساء هادريانابوليس في تركيا ، و في فسيفساء كنيسة تيرسوس في تيجيا بالبلوبونيز (اليونان) التي ترجع إلى القرن الخامس الميلادي.

ويوجد مشهد نهر يوفراتيس اي الفرات في الزاوية الشمالية من الارضية على يسار الداخل للقاعة ، وهنا يتكرر التشخيص في تصوير هذا النهر حيث يظهر رجل ملتح اقل سنا من مشخص فيسون جالسا على جرة تنساب منها المياه و يحمل جرة يسكب منها المياه على الارض يعلوها طائر لكنه مختلف عن طائر فيسون كما انه يحمل سنبلتين بيده اليمنى ، ويظهر هنا يوفراتيس مرتديا ثوب تعلوه عباءة ، و خلف رأسه اسم يوفراتيس (Ευφρατης) لا يسبقه صليب ، وقد استخدمت عدة الوان في تجسيد

[17]- Rosenbaum & Ward-perkins, Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches pl.7,11

يوفراتيس منها اللون البني بدرجاته والاسود والابيض والاخضر. و الشكل الذي ظهر به يوفراتيس هنا لا يشبه مشخص يوفراتيس في قصر ليبيا انما يشبه مشخص جيّون.

و لبيان المعاني او الرموز الي يوحي بها تجسيد (تشخيص) فيسون ويوفراتيس و تجريس من الضروري الإشارة إلى ارتباط مشاهد أخرى بها ينبغي التطرق اليها بالوصف و التحليل ، حيث يرتبط مشهد فيسون هنا بمشهد آخر يقع إلى الشمال الغربي منه ، حيث ان المياه التي يسكبها فيسون من الجرتين تسقط على الارض حيث تجد بقرة و ثور ترعاهما سيدة تتقدم نحو المياه المنسكبة لتشرب منها ، و يبدأ المشهد بشجرتي رمان مثمرتان ، وعلى يسار الشجرتين صورت راعية واقفة تضع طفلها على كتفها الايسر الذي يمسك بيده اليسرى شعرها خشية السقوط ، ويمد يده اليمنى إلى الامام كأنه يقذف برمانة نحو بقرة وثور او كأن الرمانة سقطت منه ، توجه الراعية المرتدية ثوبا بسيطا بعصاها التي في يدها اليمنى البقرة والثور لتتجه نحو المياه المنسكبة من جرتي فيسون بينما تمسك يدها اليسرى رجل ابنها حتى لايسقط ، وقد افلح الفنان في تصوير الحيوانين بشكل دقيق من الناحية التشريحية والجمالية ، وميزا بينهما من حيث اللون والقرون والاعضاء التناسلية بالنسبة للثور (**لوحة ٢**).

وهذا المشهد يمكن ان يفسر انه يمثل مشهداً من الحياة اليومية وحاجة الانسان و الحيوان و النبات و الطيور إلى المياه ، كما انه يعبر عن الراعية التي توجه الحيوانات التي ترعاها إلى مصدر الماء للشرب ، و يمكن تخيل مشاهدة هذا المشهد بكل دقة في الارياف الكيرينايكية قديما حيث النساء ترعى الابقار و هي تحمل طفلها .و يبدو ان المشهد لم يقصد به هذا بل يمكن محاولة تفسيره رمزيا ارتباطا بالمشخص فيسون الذي يروي الارض بالمياه ، لتنهل منها الحيوانات مجسدة هنا بالبقرة والثور والراعية التي تقودهما نحو الخير ، وكأن اريد بالمشهد ان يعبر عن قيادة المسيح للبشرية نحو الخير و الصلاح .

و هناك مشهد آخر تمثل في شاب او راعي يتقدمه وعل وغزال في نهاية شريط فيسون حيث افترض وجود مشهد للنهر تجريس(Τιγρις) اي دجلة الذي ضاع ولم يبق منه الا بعض المياه التي كان يسكبها هذا المشخص ، ويبدو ان هذا الراعي المرتدي قميصا بنصف كم يوجه الوعل و الغزال بعصاه نحو المياه المنسكبة من جرتي تجريس قياسا على مشهد يوفراتيس و فيسون . و قد يفسر هذا المشهد على ان الشاب يمثل الراعي الصالح (المسيح) وهو يوجه حيواناته (رعيته) نحو الخير و الصلاح. و لعل من نافلة القول الاشارة الى ان ظهور الوعل هنا يعد الأول في فسيفساء الاقليم بينما الغزال قد تكرر ظهوره في الكثير من الارضيات الفسيفسائية وباشكال مختلفة ، اما الشكل الذي يظهر به الشاب فقد تكرر في بعض الارضيات

ويمكن مقارنته بالشبان الذين صوروا في فسيفساء الحجرة الشمالية الشرقية في قصر ليبيا ، وفي صحن الكنيسة الشرقية في شحات[١٨].

يضاف الى ان هناك جزء من مشهد قد يرتبط بمشخص نهر جيون (جيحون) الذي ضاع من الارضية ، و قد استدل عليه من خلال وجود بقايا مشهد يرتبط به لم يبق منه سوى رأس حيوان ربما ظبي (او ايل) وما يشبه الماء المنسكب ، يتجه الايل نحو المياه التي يسكبها مشخص النهر من الجرة التي يحملها وتلك التي يجلس عليها وافترض هذا بناء على مقارنة هذا المشهد بمشهد فيسون ويوفراتيس ، وان الارضية قد زخرفت بالانهار الاربعة في زواياها الاربعة ، وعند الاتجاه نحو الشمال الغربي لوصف بقية مشاهد الشريط الزخرفي الشمالي الشرقي يلاحظ ان هناك جزء كبير مدمر من الشريط يتوقع انه جسد عليه بقية الايل و ربما حيوان آخر إلى جانبه و اشجار ونباتات مع راعي يوجه الايل نحو المياه المنسكبة من مشخص النهر.

ومن الضروري الوقوف عند موضوع الانهار الاربعة ومناقشته لاهميته في هذه الارضية وفي غيرها من الارضيات الفسيفسائية في العصر البيزنطي ، ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان هذا الموضوع أي تجسيد الانهار لاسيما النيل في اشكال و مشخصات بشرية او مؤلهين يرجع إلى التراث الأغريقي في العصر الهلّينِستي ثم عرف في العصر الروماني حيث صور النيل و انهار الجنة الاربعة (يوفراتيس و تجريس و جيون و فيسون) ، ولقد عادت هذه الموضوعات للظهور من جديد و هذه المرة بقوة في نهاية القرن الخامس و اوائل القرن السادس لاسيما في فسيفساء شرق البحر المتوسط البيزنطي مثل بلاد الشام و تركيا .و الواقع ان تلك الانهار تعكس ما عرف عند البيزنطيين من معلومات خاصة بتلك الانهار ، ولاهميتها و ربما لمباركة مياهها فقد ربطت بجنة عدن حيث تصور المسيحيين ان تلك الانهار تتدفق من جنة عدن بنعيمها إلى العالم الفاني ، وما يؤكد هذا الاعتقاد ان الجغرافي البيزنطي كوزماس قد صور العالم مستطيل الشكل و انه محاط بمياه المحيط ، وان تلك الانهار تتدفق من جنة ارضية (جنة عدن) المليئة بالاشجار وتمر تحت المحيط لتصل إلى الارض المعمورة ، ويبدو ان الفنان الذي صور الانهار على الفسيفساء كان في ذهنه هذا التصور عن العالم ، حيث جرت العادة ان توضع الانهار في زوايا الارضية الفسيفسائية لتعبر عن الخير الذي يعم الكون او ان الارض تروى من تلك الانهار الاربعة ، و فنان فسيفساء توكرة عبر عن هذه الفكرة فالارضية مستطلية الشكل مثل التصور الشائع للعالم آنذاك ، يوجد نهر في كل زاوية من زواياها الاربعة يعبر عن الخير (المسيحية) التي تعم المعمورة ، و قد عبر عن هذه الفكرة في توكرة و في غيرها من الارضيات بمشخص لكل نهر من الانهار الاربعة اشير اليه ليس بصفاته

[18]- Rosenbaum & Ward-perkins, Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches , pls.24c,26, 55-57,69,.80.

فقط و لكن باسمه ايضا الذي نقش بجانبه ، وقد جرت العادة ان تصور الانهار الاربعة في اشكال آدمية نصفية او كاملة بنقوش تشير إلى اسمائها او بدون نقوش ، و قد صورت وهي تحمل قرن الخيرات الذي تنساب منه المياه مثلما حدث في هادريانابوليس في تركيا[١٩] التي كشف عن ارضيتها الفسيفسائية عام ٢٠٠٤ ، وفي فسيفساء كنيسة تيرسوس في تيجيا بالبلوبونيز ، كما صورت في فسيفساء ضريح ثيودور قرب اتريوم كنيسة مادابا بالاردن[٢٠] (٥٦٢ م) واحيانا تنساب المياه من فم المشخص مثلما ظهر به جيون و فيسون في فسيفساء اوهريد[٢١] (Ohrid)، كما اشير إلى انهار الجنة الاربعة بنقش اسمائها و المياه المتدفقة بدون تشخيص لها مثلما حدث في فسيفساء في كنيسة طيبات الامام قرب حماة في سورية[٢٢] التي تؤرخ بعام ٤٤٢ م.

كما تظهر الانهار الاربعة في شكل كامل مضطجعة او جالسة على جرة او بقربها جرة تتدفق منها المياه وهذا امكن ملاحظته على وجه الخصوص في فسيفساء كنيسة الصحن في قصر ليبيا ، وذات الوضعية مع اختلاف جوهري في استبدال قرن الخيرات بجرة يسكب منها المشخص (النهر) المياه مثل توكرة ، والواقع ان وضعة الجلوس على الجرار المتدفقة منها المياه سبق ان لوحظ في فسيفساء زيوقما (Zeugma) في جنوب تركيا التي تؤرخ بالقرنين الأول و الثاني الميلاديين حيث صور يوفراتيس مستندا على جرة و يحمل سنابل بيده[٢٣] أي لا يختلف عن تصوير انهار فسيفساء توكرة بإضافة ان امثلة توكرة تحمل بيدها جرار مماثلة تتدفق منها المياه لتروي الارض و هذا لوحظ في فسيفساء اكتشفت حديثا في كنيسة جباليا قرب غزة[٢٤] لكنها احدث زمنيا من فسيفساء توكرة . ومن ثم فان الشكل الذي ظهرت به مشخصات الانهار الاربعة يعد إضافة جديدة في تشخيص الانهار الاربعة على الارضيات الفسيفسائية البيزنطية ، سواء حملت مشخصات الانهار قرن الخيرات او جرار يسكب منها الماء او تحمل سنابل و اشياء أخرى فهي ترمز إلى الخير الذي تجلبه المياه للكون ، وترمز إلى عطاء الانهار للبشرية أي انها مانحة الخير و الثروة

[١٩] -يراجع عن هذه الفسيفساء : http://www.ntvmsnbc.com/news/272315.asp?0m=t12t

[20] http://198.62.75.1/www1/ofm//mad/articles/MaguireNile.htm -

[21] - www.ohrid.org.mk/eng/istorija/antika.htm

[٢٢]- يراجع عنها : F. Campanati, Jerusalem and Bethlehem in the Iconography of Church Sanctuary Mosaics , in The Madaba Map Centenary,(Jerusalem: 1999),pp. 173-177. www.christusrex.org/.../articles/ills/Panel.jpg

[23]- http://www.zeugmaweb.com/zeugma/english/mozaikfoto.htm

[24]- Jean-Baptiste Humbert, The rivers of Paradise in the Byzantine Church near Jabaliyah – Gaza, in The Madaba Map Centenary,(Jerusalem: 1999),pp. 216-218.

من خلال قوة المسيح ، وهي ترمز هنا إلى العطاء الروحي و البركـــة[٢٥] ، و يمكـــن استجلاء هذه المعاني في فسيفساء توكرة من خـــلال التعـــرض للمـــشاهد المرتبطـــة بمشخصات الانهار الاربعة التي سبقت الاشارة اليها ، إضافة إلى احتماليـــة علاقـــة الانهار الاربعة بالتعميد وطقوسه ومن ثم بالمعموديات حيث جسدت مشخصات الانهار بصورها او باسمائها فقط على الارضيات الفسيفسائية في قلة من المعموديات مثلمـــا حدث في اوهريد و اوستيا و مادابا[٢٦] .

مشهد النيل وملحقاته : (لوحة ٣)

اضافة الى مشاهد الانهار الاربعة حملت فسيفساء هذه الارضية مشهد للنيل وملحقاته والذي جسد داخل مساحة مستطيلة يطلق عليه اصـــطلاحا إمبليمـــا (Emblema) [٢٧] دمرت نهايتها الشمالية الغربية ، يبلغ عرضها ٧٤ سم اما طولها يتراوح ما بين ١٣٠ – ١٥٦ سم ، تمثل المشهد في عجوز بوضعة جانبية نصفه العلوي عارٍ بينما يرتدي عباءة تستره من الاسفل ، ظهرت خصلات شعره على شكل نباتات ، وقد صور هذا المشخص وكأنه جالسا على جرة ماء او بجوارها ، واضعا يده اليسرى علـــى بـــدن الجرة بينما يمد يده اليسرى إلى الامام قابضا على فرع نباتي ربمـــا يكـــون نبـــات اللوتس، يقف على نهاية بدن الجرة طائر ابومنجل (Ibis) يملأ الفراغ الموجود خلف العجوز وبهذا الشكل يمكن مقارن هذ المشخص بمشخصات فيـــسون ويـــوفراتيس و تجريس بقصر ليبيا ، كما ينتشر في المشهد نبات اللـــوتس وازهـــاره ، تظهراعلـــى احداها بطة صغيرة متجهة ناحية اليمين، و يلاحظ ان العجوز تتقدمه سمكتان تسبحان خلف بعضهما في المياه المنبعثة من الجرة ، استطاع الفنان تصويرهما بدقة سواء من حيث الالوان ام الناحية التشريحية ، ويبدو ان المشهد يحتوي على اسماك اخرى لم يبق منها الا القليل . و من خلال عناصر هذا المشهد ولاسيما اللوتس والاســـماك النهرية وطائر ابومنجل يتأكد انه احد المشاهد النيلية التي ظهرت في فسيفساء قصر ليبيا والكنيسة الشرقية بشحات[٢٨] ، ومن ثم فالنهر المجسد هنا هو نهر النيل ، و يعـــد

---

٢٥ -يراجع للمزيد عن الانهار الاربعة وتفسير معانيها على الفسيفـــساء: Henry Maguire, The Nile and the Rivers of Paradise, in The Madaba Map Centenary,(Jerusalem:1999)pp.,179-184. http://www.christusrex.org/www1/ofm/mad/articles/MaguireNile.html

٢٦-يراجع عن المعموديات و علاقتها بالانهار الاربعـــة : Rosenbaum & Ward-perkins, Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches ,pp.38-39. H. Maguire, The Madaba Map Centenary,pp. , 181 ff.

27 قارن مع - Rosenbaum & Ward-perkins, Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches ,pl.55-56,63,77. ; W.Widrig. & G.Goodchild, " The West Church at Apollonia in Cyrenaica " Papers of the British Schoolat Rome,15 (1960)p.86pl. xxxa.

28- E.Alföldi-Rosenbaum,“A Nilotic Scene on Justinianic Floor Mosaics in Cyrenaican Churches”,in: La Mosaïque Greco-Romaine II.IIe Colloque international pour l’étude de la=

ظهوره في توكرة إضافة جديدة إلى المشاهد القليلة العدد التي تصور النيل ، وقد حصر الباحث ثلاثة مشاهد للنيل في الفسيفساء البيزنطية أولهما يؤرخ بالقرن الخامس الميلادي في مدينة سيبفوريس[٢٩] (Sepphoris) وآخر في بيسان (سكيثوبوليس Scythopolis) في فلسطين[٣٠] والاخير قريب الشبه بمشهد توكرة ويؤرخ بالقرن السادس. اما المشهد الثالث والاخير فقد عثر عليه في كنيسة ام المنابع (Umm al-Manabi') في الاردن[٣١] ، كما احتوت فسيفساء من جرش[٣٢] على ذات عناصر مشهد توكرة ولكن بدون تصوير مشخص النيل. ويبدو ان النيل كانت له مكانة مميزة في فسيفساء توكرة فقد وضع في منتصف الارضية الفسيفسائية (إمبليما) أي انه يمثل المشهد الرئيسي بها ، وهذا ما حدث تماما في فسيفساء الحجرة الشمالية الشرقية بقصر ليبيا و فسيفساء الحجرة الجنوبية الشرقية بكنيسة شحات التي زخرف مركزها بمشهد نيلي يختلف عن مشهد توكرة ، و لعل من نافلة القول الإشارة إلى ان ما يجمع المشاهد النيلية السابقة انها قد نفذت على ارضية حجرات كانت لها وظيفية دينية .

و يرتبط بالمشهد النيلي من الناحية الشمالية الغربيية مشهد قارب ذي صاري يحمل شخصين او ثلاثة ، الجزء الامامي منه ضائع ، والقارب المصور هنا من القوارب النهرية التي تتميز بانها اقل عمقا و ونهايتها معقوفة ، إضافة إلى ان البحّار الموجود في القارب من الخلف صورّ ممسكا عصا طويلة يغرس نهايتها في الماء ، حيث يستخدمها لدفع القارب إلى الامام مرتديا لباس البحارة الخفيف المتمثل في ثوبا قصيرا بدون اكمام مشدود بحبل عند الخصر ، ويبدو ان البحّار كان يحمل شخصين يرتديان لباسا مختلفا يعبر بهما نهر النيل

ويمكن مقارنة مشهد قارب توكرة مع مشهد آخر في اللوحة رقم ٤٩ بفسيفساء صحن كنيسة قصر ليبيا الشرقية إضافة إلى ظهور قارب مشابه و لكن بدون اشرعة في فسيفساء الحجرة الشمالية الشرقية بكنيسة قصر ليبيا و في الجناح الشمالي من الكنيسة

=mosaïque antique,Vienne 30 Aout-4 Septembre 1971(1975),pp.= =149-153; Rosenbaum & Ward-perkins, Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches ,pls.8, 20,48,52-53..

[٢٩] -يراجع عن تلك الفسيفساء :
E. Netzer and Z. Weiss, Zippori (Jerusalem, 1994),pp.47-51.
www.netours.com/2003/Sepphoris-lower-city.htm
www.bibleplaces.com/sepphoris.htm

[٣٠] -يراجع للمقارنة : Rosenbaum & Ward-perkins, Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches ,pl. 86.; N. Zori, The house of Kyrios Leontis at Beth Shean, Israel Exploration Journal 16 (1966), pp. 123-134
http:// biblelandpictures.com

[٣١] -يراجع عنها : B.Hamarne, in The Madaba Map Centenary,p.186

[٣٢] - يراجع عنها : C. H. Kraeling, Gerasa. City of the Decapolis (New Haven, 1938),pp. 241-244; 324-329, 480, pls. 66-70.

الشرقية في شحات و في الكنيسة الشرقية بسوسة [٣٣] ، ويمكن مقارنته ايضا بمشهد في فسيفساء بقرية بيسان في فلسطين ترجع للقرن السادس[٣٤] صور فيها قارب بنهر النيل بجانبه سمكة و بهذا فهو لا يختلف عن قارب توكرة ، إضافة إلى مشهد في كنيسة حديثة بفلسطين[٣٥] . وعلى الرغم من ان قارب توكرة يعد جزءاً من المشهد النيلي أي مشهد من الحياة اليومية الا انه يمكن ان يعبر رمزيا عن نجاة المسيحية و الاتجاه نحو الخير نحو الجنة ، ويرى الفخراني[٣٦] في هذا الصدد انه يرمز إلى رحلة المسيح إلى جنة الخلد .

وبنظرة عامة فالمشهد برمته من المشاهد النيلية التي تعود اصولها إلى الفن الهلّينِستي و التي انتشرت في العصر الروماني ، وعادت إلى الظهور في الفسيفساء البيزنطية في القرن الخامس ، لكنها انتشرت واصبحت من الموضوعات الثابتة في فسيفساء القرن السادس حيث شاعت زخرفة الارضيات الفسيفسائية بالموضوعات النيلية التي تعبر عن النيل و بيئته في الكثير من ارضيات الكنائس و المنازل البيزنطية في شرق الامبراطورية البيزنطية لاسيما في سورية و الاردن و فلسطين إضافة إلى كيرينايكي[٣٧] [٣٨]. والواقع ان موضوع النيل و الموضوعات النيلية تم تقبلها بسهولة عند المسيحيين بسبب حيويتها و زخارفها البديعة التي تجسد فيها الماء او النهر بأسماكه و حيواناته و نباتاته المتنوعة ، إضافة إلى المعاني التي يمكن ان ترمز اليه تلك الزخارف حيث ان الماء و الخضرة قد ارتبطت عند المسيحيين بالجنة ، لهذا فقد اقبلوا على تصوير الموضوعات التي لها علاقة بالانهار مثل انهار الجنة الاربعة والنيل[٣٩] ،

---

[33]- Rosenbaum & Ward-perkins, Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches ,pl.8, 17, 20,48,52-53,55,57,69 fig.2.

[34]- Rosenbaum & Ward-perkins, Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches ,pl.56,3; Y.Urnheim,. Assaph, 7,(2002)p.20 fig.5.

[35]- Y.Urnheim,. Assaph, 7,(2002)p.21 fig.7.

[٣٦] – فوزي الفخراني ، تقرير عن الحفريات الأثرية الأولى للجامعة الليبية التي قام بها قسم الاثار بكلية الاداب في مدينة توكرة الأثرية ١٧–٢٩ ابريل ١٩٧٢) ص. ١٠.

[٣٧] –يراجع للمزيد عن تصوير النيل و الموضوعات النيلية في الفسيفساء البيزنطية :

B.Hamarne, in The Madaba Map Centenary,p.185-189; H. Maguire, in The Madaba Map Centenary,pp. , 179-184; Rosenbaum & Ward-perkins, Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches,pp.45-49;Y.Urnheim,. Assaph,7,(2002)pp.17-40.

[٣٨] – يراجع عن تلك الامثلة :

B.Hamarne,The River Nile and Egypt in the Mosaics of the Middle East in The Madaba Map Centenary,(Jerusalem: 1999)pp. 185-189

[٣٩] – يراجع للمزيد عن هذا الموضوع :

A.Hermann, Der Nil und die Christen, Jahrbuch für Antike und Christentum 2 (1959),pp. 30-69.; J.Balty, Thèmes nilotiques dans la mosaïque tardive du proche-orient, in, Mosaïques antiques du proche-orient. chronologie, iconographie, interprétation(Paris,1995),pp.245-254;=

وعند محاولة تفسير مشهد النيل في فسيفساء توكرة فهو لا يختلف عن نظرة المسيحيين لهذا النهر بمعانيه الرمزية ، ولكن من الضروري ان يربط مع بقية الانهار الاربعة المصورة في ذات الارضية ، والتي تؤكد اهمية الماء في تلك الارضية الا انه من الصعب الربط بين الماء (الانهار) ووظيفة الحجرة التي تغطيها الفسيفساء.

مشهد الأيل و الثعبان: (لوحة ٤)

و من المشاهد اللافتة للانتباه مشهد يصور حيوان الأيل قابضا على ثعبان بفمه ، جسد على يمين شجرتي الرمان في الشريط المنتهي بمشهد فيسون، وعلى الرغم من ضياع اجزاء من المشهد فعناصره الرئيسة باقية حيث يظهر الأيل المنقط وذو القرون المشجرة بوضعة الثلاثة ارباع متجها ناحية شجرتي الرمان قابضاً بفمه بقوة على الجزء الخلفي من رأس ثعبان ضخم مما ادى إلى خروج لسان الثعبان للخارج إضافة إلى تصوير دمائه تسقط على الارض في شكل خطوط متموجة حمراء اللون من الجرح الذي احدثه الايل ، كما يدوس الاخير برجله اليمنى على جسد الثعبان . الواقع ان هذا المشهد الدموي ليس نادرا في ظهوره على الارضيات الفسيفسائية في اقليم المدن الخمس فقد جسد ثلاث مرات خارج توكرة حيث لوحظ في مشهدين في فسيفساء قصر ليبيا ، و في مشهد آخر في فسيفساء صحن الكنيسة الشرقية في شحات[٤٠] ، ومما يجدر ذكره ان مشهد توكرة لايختلف كثيرا عن المشهد المماثل له في فسيفساء الحجرة الشمالية الشرقية بكنيسة قصر ليبيا سواء من حيث الوضعية و الاتجاه ، ومما يجدر قوله ان مشهد توكرة قد صور بدقة فنية عالية تفوق تصوير المشاهد الثلاث السالفة الذكر. ولا يبدو ان المشهد هنا قصد به تصوير مشهد من الطبيعة حيث كانت الايائل عندما تمرض تُخرج الثعابين من حفرها و تبتلعها ، و لكن مشهد رمزي يرمز إلى اشياء ليس من السهل الجزم بما ترمي اليه ، لكن من المحتمل ان معناه الرمزي مبهم و لكن له علاقة بالتعميد و المياه (المحيط) بصورة عامة وفقا لما تراه روزنبام و جرابار[٤١] ، الا ان المعنى الرمزي يمكن ان ينظر له من زاوية أخرى ، فالأيل هنا يرمز إلى السيد المسيح و الثعبان يرمز إلى الشيطان ومن ثم فان المشهد يرمز إلى دوس المسيح ـــ ممثلا للخير ـــ وقضاءه على الشيطان ممثلا للشر في هذا الكون.

=O. Jentel, “La representation du dieu Nil sur les peintures et les mosaïques et leur contexte architecturel”, in: Echos du Monde Classique/Classical Views, XXXI, 6 (1987),pp. 209-116.

[40]- Rosenbaum & Ward-perkins, Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches ,pls. 6,3;41,3; 61,2-3.

[41]:- Rosenbaum & Ward-perkins, Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches ,pp.37,50,54.

اطار زخرفي :

سبقت الاشارة الى ان مشهد النيل وملحقاته يعد مركز هذه الارضية وقد حرص الفنان ان يحيط هذا المشهد باطار زخرفي من جميع جوانبه ، تمثل هذا الاطار في صفين من الدوائر الممتدة بشكل افقي بحيث ترتبط كل دائرة بالدائرة الأخرى من ثلاث جهات بعقدة بسيطة (ربطت بشكل مخالف) ، اما الجهة الرابعة فتربط بالاطار القريبة منه ، وهي بهذا الشكل قد حصرت ما يشبه المثلث بين كل دائرتين وعن حدود الاطار، وقد زخرف كل مثلث بزهرة اللوتس الثلاثية الوريقات[٤٢] ، وهذا الشكل ايضا جعل كل اربع دوائر تحصر شكل هندسي يشبه المُعين ، و تحمل كل دائرة البالغ قطرها ٢٠ سم والمعينات زخارف متنوعة اهمها زخارف حيوانية و نباتية وغيرها ، و في الاصل كان الاطار يتكون من اربع قطاعات او جوانب بقى منها ثلاثة و ضاع القطاع الرابع (الشمالي الغربي) ، حيث ان القطاع المحاذي لمشهد مشخصة كتيسيس و اختيها يتكون من صفين من الدوائر في كل صف ست دوائر (المجموع ١٢ دائرة) زخرفت الدوائر بزخارف متنوعة منها : زخرفة نباتية مستديرة ، رأس حيوان غير واضح ، رأس حمار ، رأس ارنب ، رأس أيل منقط ، يلاحظ ان كل رأس حيوان داخل دائرة يقابله رأس حيوان من الفصيلة نفسها الدائرة المجاورة لها. ا ما المعينات فقد زخرفت برأس غزال ، رمانة[٤٣] ، قوقعة حلزونية[٤٤] .

اما القطاع المحاذي لشريط فيسون وملحقاته ، فلم يبق منه سوى اثنتا عشرة دائرة في كل صف (المجموع ٢٤ دائرة) ، زخرفت الدوائر بزخارف متنوعة منها: رأس طائر ابومنجل ، عنقود عنب ، رأس حيوان (ارنب ؟) ، وريدة مستديرة ذات تسع وريقات تشبه زهرة عباد الشمس ، سمانة ، رأس ارنب ،عقدة سليمان[٤٥] ، رأس نمر او كلب ، بطة ، رأس غزال ، وريدة مستديرة ، ويلاحظ ان الزخارف ذاتها تتكرر في الصف الثاني بحيث كل دائرتين متجاورتين تحمل الموضوع الزخرفي ذاته. و لقد زخرف صف المعينات بزخارف متنوعة منها : زخرفة مستديرة غير واضحة، قوقعة حلزونية مذببة ، رمانة ،زخرفة نباتية على شكل معين ، سمكة ، ثلاث ثمار فاكهة غير واضحة .

---

٤٢ - قارن مع Rosenbaum & Ward-perkins, Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches , pls.67,73.

٤٣ - قارن مع , Rosenbaum & Ward-perkins, Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches pl.38.

٤٤ - قارن مع : Rosenbaum & Ward-perkins, Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches , p.122 figs.2,10, pls.9-10.

45 - M. Avi-Yonah, “The Haditha Mosaic Pavement”, Israel Exploration Journal, 22 (1972),pp. 118-122; Y.Urnheim,. "Nilotic Motifs and the Exotic in Roman and Early Byzantine Eretz Israel", Assaph, 7,(2002)p.21 fig.7;
www.kahlil.org/lebpics/lebpics132.html

اما القطاع الشمالي الشرقي المحاذي لشريط يوفراتيس فلم يبق منه سوى اربع دوائر في كل صف (المجموع ٨ دوائر) : زخرفت الدوائر بزخارف متنوعة منهـا : رأس غزال[٤٦]، بطيخة محززة ،رأس بقرة ، زخرفة نباتية مستديرة ، و زخرف صف المعينات بزخارف متنوعة ، اربع ثمار فاكهة ربما رمان ، رأس ثعبان او سمكة ، عنقود عنب[٤٧] .

ولعل ما يلفت الانتباه عند مقارنة الزخارف المصورة في هذا الاطار الزخرفي بمثيلاتها في الفسيفساء البيزنطية في كنائس الاقليم ان زخارف الحيوانات و الطيور و الاسماك والقواقع قد عثر عليها مصورة هناك ، الا ان الفريد في توكرة هو عدم تصوير غالبية الحيوانات بشكل كامل حيث ظهرت فقط رؤوسها مع جزء من الرقبة باستثناء السمانة و البطة .

وعلى الرغم من ان هذه الزخرفة الاطارية قد ظهر ما يشبهها و لا يطابقها في بعض فسيفساء الاقليم مثل فسيفساء صحن الكنيسة الشرقية في قصر ليبيا[٤٨] ، وفي فسيفساء الحجرة الجنوبية الشرقية في الكنيسة الوسطى في سوسة[٤٩] فهذا يجعل انموذج توكرة إضافة جديدة إلى الزخارف الاطارية في الفسيفساء البيزنطية في المدن الخمس.

بقايا مشاهد أخرى :

هناك بعض المشاهد تنتشر في الارضية اغلبها ناقصة بسبب تدمير في الارضية ، منها ذلك المشهد الذي يظهر في الناحية الشمالية الغربية ، وتمثل في مشهد مهاجمة اسد لايل او غزال ، منهما الى الجزء الامامي ، ويبدو ان الايل يطارده شيء ما حيث انه يعدو نحو سجرة سرو و شجيرة اخرى يوجد خلفها اسد يستعد لمهاجمة الايل ، و لا يبدو انه يوجد اختلاف في تصوير هذا الاسد المتأهب للقفز على فريسته مع مشهد الاسد الذي يهاجمه فارس وجواده الذي سبقت الاشارة اليه. ومما تجدر اليه حول هذا المشهد ان مشاهد تصوير مهاجمة الحيوانات المفترسة للحيوانات الأخرى الاضعف منها لاسيما الغزلان او الايائل قد شاع في الفسيفساء البيزنطية مثل تصوير عقاب يهاجم غزالاً مثلما ظهر في فسيفساء قصر ليبيا ، او نمر يهاجم غزالاً او اسداً يهاجم غزالاً او ايلاً مثلما في فسيفساء الكنيسة الشرقية بشحات[٥٠] و يمكن مشاهدة مشهد

46-Rosenbaum & Ward-perkins,Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches ,passim .

٤٧- قارن مع Rosenbaum & Ward-perkins, Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches,pls.2,63,64,75-80,82;Aurigemma,.Le scoperte archeologiche. Tripolitania I, I monumenti d'arte decorativa 1: I mosaici, pls.19-34.

48- Rosenbaum & Ward-perkins, Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches , p.122 fig.10, pl.15.

49- Rosenbaum & Ward-perkins, Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches ,pl.74.

50-Rosenbaum & Ward-perkins,Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches ,pls.5,22,96.

مشابه في فسيفساء مدينة سيبفوريس بفلسطين[٥١] ، ويمكن ان يؤخذ المشهد على علاته أي اسد يفترس حيواناً وهذا ما يحدث كثيرا في الطبيعة ، او يعبر رمزيا عن اندفاع قوى الشر لمهاجمة قوى الخير.

ومن المشاهد الاخرى التي تنبغي الاشارة اليها مشهد كلبي صيد او فهدين يجريان باقصى سرعة نحو اليسار وهذا المشهد أول ما اكتشف من هذه الارضية الفسيفسائية ــ وقد ضاع رأسيهما و الجزء الخلفي من احدهما ، ويبدو ان هذين الكلبين يتجهان نحو صيد فريسة ما تعدو امامهما او تواجهما و لكنها ضاعت في الجزء المدمر من الارضية على يسار مشهد الكلبين .

و هناك مشهد آخر قرب مشهد الكلبين ضاعت غالبيته و يبدو انه في الاصل مواجهة بين فارس لم يتبقى الا جزء من حصانه يتقدم نحو رجل يقاومه و يحاول ايقافه بالسوط او السيف الذي يحمله بيده اليمنى و ما يشبه الترس الذي يمسكه بيده اليسرى (او ربما المشهد يمثل حيوان مفترس يهاجم رجل)، و لم يصور من الرجل العاري الصدر الا الجزء العلوي اذ يبدو كأنه مترنح او سقط أسفل الحصان لان الجزء السفلي منه لم يصور ، وقد صور الرجل بيدين قوتين مفتوحتين و رأس مائل نحو اليسار.

يضاف اليها مشهد في الناحية الشمالية الغربية من الارضية ، وقد تمثل في فارسين يعدوان اتجاه الزاوية الغربية حيث من المفترض انه يوجد مشهد المشخص تجريس ، يرفع احد الفارسين يده اليمنى إلى الأعلى ممسكا بسوط او اداة يلوح بها في اتجاه حيوان يطارده ، و الواقع ان المشهد في حالة سيئة من الحفظ و قد ضاعت الكثير من أجزائه. و الرغم من هذا فان ما تبقى منه يسمح بمقارنة لباس الفارس و الطريقة التي ظهر بها الجواد بما ظهر في مشهد مشابه لفارس و جواده في فسيفساء الكنيسة المركزية في شحات و في اللوحة رقم ٢٧ من فسيفساء صحن الكنيسة الشرقية في قصر ليبيا[٥٢] . وما قيل على الفارس المصور في الأسفل و جواده ينطبق على الفارس المصور في الأعلى . وللاسف فقد ضاع بقية المشهد او ما يتقدم الفارسين و الذي يرجح انه يتمثل في حيوان مفترس او اكثر يطارد من قبل الفارسين ومعهما كلاب الصيد ، قياسا على مشهد صيد الاسود في شريط فيسون ، و من ثم فان المشهد يمكن ان يفسر بمطاردة قوى الخير لقوى الشر او انتصار الخير أي المسيحية على الشر أي الوثنية .

[51]- www.bibleplaces.com/sepphoris.htm

[52]- Rosenbaum & Ward-perkins, Justnianic Mosaic Pavements in Cyrenaican Churches ,pls. 14, 40.

خاتمة:

وبعد هذا العرض الوصفي التحليلي المقارن لمشاهد هذه الارضية يمكن الإشارة إلى بعض النقاط الأخرى التي تثيرها هذه المشاهد و الارضية بصورة عامة ، فمن الضروري أولاً تأصيل هذه الارضية و تاريخها ، ثم التعرض للمشاهد وما تعكسه من معلومات حول المكان التي نفذت فيه .

وحول تأصيل هذه الارضية او الفسيفساء فمن حيث الاسلوب التي نفذت به فهي لا تختلف عن الارضيات الفسيفسائية التي ظهرت في بقية كنائس الاقليم في سوسة و قصر ليبيا و شحات و رأس الهلال و وفي توكرة نفسها سواء من حيث الاسلوب الفني الذي نفذت به ام الموضوعات التي زخرفتها ، ويمكن مقارنة الشكل العام للارضية مع ارضيات أخرى في الاقليم فارضية توكرة من طراز السجادة مركزه اطار يحمل موضوع زخرفي رئيسي تحيط به اطارات أخرى متداخلة يحمل كل اطار منها موضوع زخرفي مميز ، وهذا الاسلوب يمكن تتبعه في فسيفساء الحجرة الجنوبية الشرقية بالكنيسة الشرقية بشحات و في الحجرة الشمالية الشرقية بالكنيسة الشرقية في قصر ليبيا و لم يظهر هذا الاسلوب في أجزاء أخرى من الكنائس مثل صحن الكنيسة ، وكأن هناك ارتباط بين هذا الاسلوب الزخرفي و بين الحجرات الملحقة بالكنائس او بالمباني التي لها علاقة بالناحية الدينية ، كما ان عنصر التشابه يتمثل في تشابه الموضوعات الزخرفية بصورة عامة ، فالاطار الرئيسي المركزي في تلك الارضيات متشابه حيث زخرف بموضوع نيلي ، تحيط به موضوعات زخرفية متنوعة تختلف من ارضية إلى أخرى ، ومن هنا على الرغم من وجود تشابه في الارضيات بصورة عامة الا انها تختلف في تفاصيلها الداخلية مما يجعل صعوبة القول ان من نفذ تلك الفسيفساء الفنانين انفسهم ، لكن هذا التشابه في المخطط العام للفسيفساء قد يعطي دلالة تاريخية انها نفذت في فترة تاريخية واحدة . و يبدو ذلك صحيحا إلى حد بعيد ، ومن الصعب ان يخرج تنفيذ هذه الارضية عن أعمال الامبراطور جستنيان (٥٢٧–٥٦٥ م) في الاقليم ، و الواقع ان الفيصل في تأريخ الفسيفساء البيزنطية في اقليم المدن الخمس اصبح منذ اكتشاف فسيفساء قصر ليبيا التي حملت نقوش تؤرخ ما بين ٥٣٨–٥٣٩ م، هو الاساس الذي أرخت بقية الارضيات الفسيفسائية في الاقليم قياسا عليه ، ومن هنا فان فسيفساء توكرة تعاصر فسيفساء قصر ليبيا و فسيفساء الكنيسة الشرقية في شحات، فاذا ربطت فسيفساء توكرة بفسيفساء الحجرة الشمالية الشرقية في قصر ليبيا التي نفذت بعد فسيفساء الصحن ، فان فسيفساء توكرة قد نفذت بعد عام ٥٤٠ م ، وهي من المؤكد معاصرة لفسيفساء الحجرة الجنوبية الشرقية بالكنيسة الشرقية في شحات التي نفذت في عصر جستنيان ضمن مشروع إعادة بناء تلك الكنيسة ، ومن ثم فانه يبدو ان فسيفساء الصحن في الكنيسة الشرقية في قصر ليبيا ونظيرتها في شحات ترجع إلى الفترة ذاتها يضاف اليها الطبقة السفلى التي تقع أسفل فسيفساء توكرة موضوع الدراسة هنا ،

والارضيات السابقة متشابهة في المخطط العام القائم على الشكل الشطرنجي . وهي اسبق زمنيا من الارضيات التي نفذت الحجرة الشمالية الشرقية بقصر ليبيا و في الحجرة الجنوبية الشرقية بالكنيسة الشرقية في شحات يضاف اليها فسيفساء توكرة و الارضيات السابقة سبقت الإشارة إلى انها مرتبطة ببعضها من حيث الزخارف و المخطط العام للزخرفة . و يبدو من المناسب ان تؤرخ فسيفساء توكرة بمنتصف القرن السادس الميلادي و تدخل ضمن المشروع العمراني الجستنياني الذي طال كنائس المدينة و مبانيها التي اهمها تحصينات المدينة ، هذا المشروع الذي اشار إلى جزء منه المؤرخ بروكوبيوس القيصري في كتابه المباني (De Aedificiis)[٥٣].

ومن حيث الاسلوب الفني الذي نفذت به الاشكال المرسومة في فسيفساء توكرة فتجدر الإشارة إلى التشابه مع نظائرها في فسيفساء الاقليم من حيث الاوضاع أي استخدام وضع الثلاثة ارباع ووضع المواجهة ، إضافة إلى التشابه في طريقة تنفيذ الاشكال ورسمها باستعمال الخط الكفافي الخارجي في لون قاتم ثم ملء العناصر الداخلية بالوان متنوعة إضافة إلى ابراز التفاصيل الداخلية باستخدام الوان فاتحة وخطوط خارجية توضح التفاصيل المطلوبة .

ومما تجدر الإشارة اليه ان فسيفساء توكرة لا يمكن ان ينظر اليها بمعزل عن بقية فسيفساء الاقليم في العصر البيزنطي التي تعد استمرارا للفسيفساء الرومانية ، ومن هنا فان المؤثرات الفنية في هذه الفسيفساء تؤكد على التأثيرات الشرقية أي الاسلوب الفني الشائع في مواقع شرق البحر المتوسط ، ومما برهن على ذلك المقارنات التي ذكرت اعلاه .

---

٥٣ - يراجع في ذلك : D.Roques, "Procop de Cesaree et la Cyrenaique du VI e. s.ap.J.C.(De Aedificiis,VI,2,1-23) ", Rendiconti della Accademia di Archeologia, Lettere e Belle Arti 64(1993-94)pp.393-434; Roques, " Procop de Cesaree et la Cyrenaique du 6e. s.ap.J.C "(resume)Libyan Studies, 25 (1994)pp.259-264 .



لوحة ١



لوحة ٢



لوحة ٣



لوحة ٤